كتب

فكر

غوستاف لو بون «الجماهير» لا تفهم لغة العقل؟

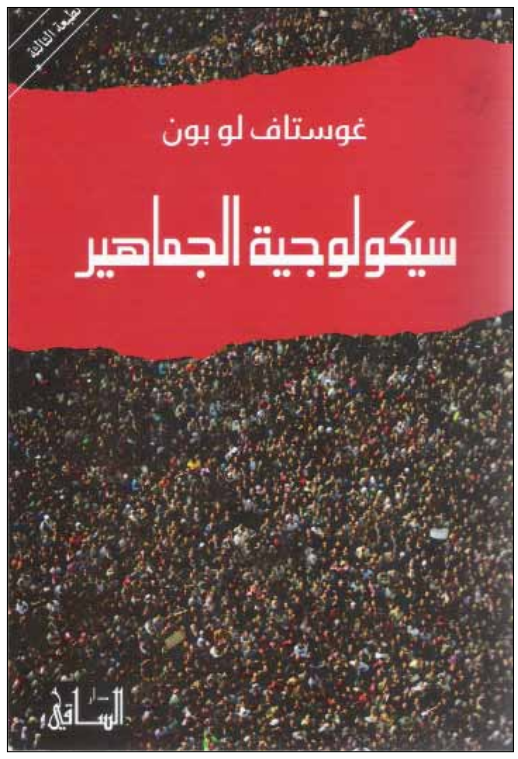

الأطروحة التأسيسية لعالم الاجتماع الفرنسي الشهير، عرّبها وقدّم لها هاشم صالح في طبعة ثالثة عن «دار الساقي». عودة إلى علم نفس الجماهير في غمرة «الثورات العربيّة»...

ريتا فرج

هل تصح العودة إلى نظريات علم نفس الجماهير في مقاربة الانتفاضات العربية الراهنة؟ وأي دور للوعي الجمعي في تحديد أهداف الجمهور، واختلاف أولوياته عبر الزمان والمكان؟ في كتابه التأسيسي «سيكولوجية الجماهير» الصادر عام 1895، يحدد عالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لو بون (1841 ـ 1931) أهم الأطر السوسيولوجية والنفسية في دراسة الجمهور. الأطروحة التي ترجمها وقدم لها الباحث السوري هاشم صالح في طبعتها العربية الثالثة (دار الساقي ـ 2011) تعالج إشكاليات متشابكة يمكن جمعها تحت مفصلين أساسيين: خصائص الجمهور، ومرتكزات القيادة.

وإذا كان المسار الذي بلوره صاحب «حضارة العرب» (1884) يقتضي تعرية الجمهور، وتفكيك متخيله، فثمة ثنائية متناقضة تتحكم به هي الهدم والبناء. ورغم أن بعض الأفكار التي تطرق إليها لو بون، كأحد مؤسسي علم نفس الجماهير تخطاها الزمن، وما عادت من الركائز التي ترصد الجماعات البشرية ـ أقله في المجال الأوروبي الذي تحول من كتل بشرية دهماوية إلى مجموعة من الأفراد المدركين لحقوقهم وواجباتهم، تحت راية العقد الاجتماعي ـ فإن ذلك لا يمنع تطبيق تخريجات لو بون على جمهور العالم الثالث، وتحديداً العالم العربي؛ إذ يبدو أنه على خطى التحرر من عصر الجماهير إلى حقبة الفاعل الرقمي.

على المستوى الدلالي، ثمة اختلاف طفيف بين الجمهور والشعب. الأول يشير إلى الجمع البشري، الكامن، وغير المنتظم، الموسوم بالسواد لعدم وضوح هويته الفكرية وشخصيته السياسية... والثاني يدل على مجموعة القبائل والبطون والفروع، ما يعني التفريع والتقسيم. وهذه الخاصية لا تقتصر على لسان العرب، بل لها تمثلاتها في الوعي الغربي، قبل القرن الثامن عشر الذي شهد كبرى الثورات، ونعني الثورة الفرنسية عام 1789.

وبصرف النظر عن راهنية النظرية التي صاغها صاحب «الثورة الفرنسية وسيكولوجية الثورات»، بالنسبة إلى الدول المصنفة في دائرة العالم الأول، لا شك في أن أهمية أطروحة لو بون تصلّح لتفكيك فوضى الجمهور في المجال العربي. على إيقاع التوهيم الإيديولوجي والديني والسياسي، يتدرّج الجمهور ـ وفق نظرية لو بون ـ نحو نمط من العبودية المختارة، والهدامة. وهو في غالبية الخلاصات التي توصل إليها منذ أكثر من مئة عام، يؤكد توافر خصائص محرّكة للجماهير، من بينها سرعة الانفعال والتأثر والتعصب واللاوعي في التحرك.

وطبعاً، توهيم الجمهور على المستويين الديني والسياسي يحتاج إلى قيادات تلجأ هي الأخرى إلى أدوات ومؤثرات، تجيّش بها كل تجمع، وخصوصاً أن الجمهور، كما خلص لو بون، عاجز عن التفكير «المتعقل»، ولا يملك الروح النقدية. ما يؤدي إلى إنجذابه إلى الجوانب الأسطورية (الأسطورة لا ترمز إلى البعد الديني فحسب، بل لها مرتكزاتها التاريخية على الصعيد السياسي) المولدة للأوهام، أو الآراء التي يشكلها المتخيل الجمعي.

وبما أن الجمهور لا ينفصل عن رأس القيادة، الكاريزمية والتوهيمية في الغالب، حدد لو بون أهم النقاط المؤثرة في تأطير العلاقة بين الطرفين: للكلمات الرنانة سطوتها، وللأوهام حضورها الأسطوري، على اعتبار أن الجماهير غير قادرة على استيعاب الحجج العقلية. الخطاب العقلاني لا يجذبها؛ لأنها في اللاوعي تفضل كل ما هو وهمي وفوضوي. لذا، «فإن محرّكي الجماهير من الخطباء، لا يتوجهون إلى عقلها، بل إلى عاطفتها، فقوانين المنطق العقلاني ليس لها أي تأثير فيها». هذا ما استنتجه الكاتب، ولعل ما قاله يسعفنا في فهم فوضى الوعي لدى الجماهير العربيّة، الخاضعة لتأثيرات لخطاب الديني من جهة، والخطاب السياسي من جهة أخرى.

هل ينذر الحراك الثوري الرقمي في العالم العربي، والحالة تلك، بانقضاء عصر الجماهير؟ أم أن ما يجري يدشّن لمشروعات التفكيك المذهبي والإثني؟

إذا كان الجمهور وفق قراءة لو بون غير عقلاني، فمن هو السيد الذي يحركه؟ وما هي الوسائل التي يجب أن يمتلكها القائد في خطابه؟ كل جماعة غير منتظمة لا تنتمي إلى الدولة، لا يمكنها الاستغناء عن السيد، ووجود السيد يعني أن هناك مالكاً ومملوكاً، وأن هذا الأخير (المملوك) يحتاج إلى الانبهار بالأفكار الصادرة عن القادة... وهؤلاء ليسوا «في الغالب من رجال الفكر»، كما خلص الكاتب، بل «رجال ممارسة وانخراط»

> هل ينذر الحراك الرقمي العربي بانقضاء عصر الجماهير؟

يعززون حضورهم لدى الجمهور، عبر ثلاثة محركات: «التأكيد، التكرار، العدوى». وهذه الثلاثية تقتضي توافر ما يسميه لو بون «الهيبة الشخصية» أو «الكاريزما». والأشخاص الذين يمتلكون هذه الخاصية يمارسون «سحراً مغناطيسياً على أولئك الذين يحيطون بهم».

يدعم صاحب «سيكولوجية الاشتراكية» فرضيته بشأن القيادة الكاريزمية ومدى تأثيرها على الجمهور، بأمثلة تاريخية. يذكر على سبيل المثال نابليون وجان دارك وبوذا والمسيح ونبي الإسلام. بطولية هؤلاء تكمن في هيبتهم الشخصية، وقدرتهم على الإقناع، وهم بهذا المعنى آلهة وأبطال، ولا يجوز مناقشة أفكارهم لأن النقاش والنقد يساهمان في تلاشيّ الأفكار السياسية والدينية واضمحلالها.

أطروحة لو بون، لا تطاول خصائص الجمهور والقادة من منظور علم النفس الاجتماعي فقط. بعدما فكك ماهية الجمهور والمواصفات التي لا بد للقائد من التمتع بها، قسم فئات الجماهير المختلفة إلى قسمين: جماهير غير متجانسة (جماهير الشارع، والمجالس البرلمانية)، وجماهير متجانسة (الطوائف والزمر والطبقات).

أربع حقائق يمكن استنتاجها بعد قراءة «سيكولوجية الجماهير»، أولها أن الجمهور لا يمكن إقناعه بأيّ إيديولوجيا، أو فكرة، بالاعتماد على الوسائل العقلية. كذلك فإنه يفضّل مخاطبته بلغة الصور والإيحاء والشعارات. وهو لا يمكنه أن يتحرك من دون قيادة. وأخيراً هناك تبادل الوهم السياسي والديني بين القاعدة ورأسها. لكن الأهم من هذه الرباعية، غياب العقلانية وتحرك الجماهير على أساسها. حتى الأفراد غير العاديين، أي المفكرين والعلماء، ليس بمقدورهم مقاومة سحر الجماهير إذا انخرطوا معها.

أطروحة «سيكولوجية الجماهير» يمكن الركون إليها في دراسة العالم الثالث، لا المجتمعات الحديثة التي خرجت من عصر الجماهير، وتدرجت باتجاه الفردانية والعلاقة المباشرة مع مؤسسات الدولة. وهذا الخروج لا يعني موت الإيديولوجية في الغرب، فالرأسمالية الجديدة ترتكز على منظومات استبدادية، وتمارس أشد أنواع القهر مع اختلاف الأدوات والشروط، ولا تقل ضراوة عن التوهيم الذي يمارسه السلطان الديني والسياسي.

باكورة

نور البواردي هذي الأشياء حاضرة فأين الإنسان؟

صلاح حسن

يضع الشاعر الشاب كل حمولته في ديوانه الأول؛ لأنه يعتقد أن كل ما كتبه يستحق أن يُنشر في كتاب. لكن الناصحين والناشرين قد يؤثرون قليلاً أو كثيراً في الشكل النهائي للكتاب، بما يجعله مقبولاً إلى حد ما، ويتلاءم مع الذائقة السائدة. ربّما كان هذا الكلام ينطبق على ديوان الشاعرة السعودية الشابة نور البواردي «النصف المضيء من الباب الموارب» (دار الغاوون)، وذلك لسببين: الأول هو تدخل الناشر بحكم خبرته في العمل، في اختيار بعض النصوص أو استبعادها. والثاني هو التقنية التي كتبت بها النصوص، ومدى تأثرها بالشعر الأوروبي الحديث. السبب الأول لا يعنينا، والثاني هو ما نريد الإضاءة عليه، وخصوصاً أنّ الشاعرة كانت قد درست الأدب الإنكليزي.

هناك ميزة واحدة في هذا الديوان توحي بأنّ الشاعرة يمكن أن تتطور في المستقبل، وتنجز قصيدة جيدة. هذه الميزة هي وحدة المناخ العام في النصوص، على صعيدي الأداء اللغوي والمضامين ووضوح التجربة إلى حد ما. لكن هذا لا يلغي وجود نصوص قصيرة، ساذجة، ما كان لها أن تدخل في هذه المجموعة، ولا بعض الجمل التي تعد من الكليشيهات بحكم قصر تجربة الكتابة، مع أنّها قليلة ولا تؤثر في بعض النصوص التي تقترب من النضج الكامل.

تدوّن نور البواردي أسرارها الصغيرة التي لا يعتد بها أحد، في تلك العزلة التي تعيشها، في ذلك المكان الصغير للغاية (غرفتها) الذي يمثل عالمها الخاص. طاقتها الشعرية تكمن في تحويل الأشياء الصغيرة في هذا العالم الضيق، إلى أفكار شعرية طيبة. لكن يبدو تأثير الشاعرات الأميركيات واضحاً على هذا الجهد إلى درجة كبيرة، بحيث تتطابق الأجواء أحياناً ويفقد النص هويته.

«القدم الموعودة بجناحين ورقصة تانغو أخيرة/ التي تترك آثاراً وردية قرب محطة القطار/ وفوق مقاعد السيرك المهجورة/ كالربيع الباهت المنسدل من جيب معطف قديم/ الخيط الكريه الذي لا يحبه أحد «قصيدة» معجونة بمادة لزجة».

لو تأملنا فكرة القصيدة أولاً، وبالتالي طبيعة المناخ الذي تتحدث عنه، وأخيراً خاصية المكان، لتبين لنا أنّ هذه القصيدة تدور في بلد أوروبي، وليست لها علاقة، لا من قريب ولا من بعيد، بالمحيط الذي تعيش فيه الشاعرة. هناك موعد للرقص في مكان ما والرقصة محددة «تانغو»، وهناك محطة قطار وسيرك وربيع باهت... وهذه كلها مفردات الشعر الأوروبي والأميركي، ما يدل بقوة على تأثر الشاعرة بهذه الأجواء وشعرائها.

لكن هناك نصوص أخرى مغايرة تماماً، وهي عديدة، تصف ذلك العالم الضيق الذي لم تطوره الشاعرة من الناحية الفنية. ولو فعلت، لكانت قد أنجزت شيئاً مهماً للغاية، لأنّها في الحقيقة لا تمتلك غير أشياء بسيطة وصغيرة، ولغة سلسة استطاعت أن تصنع منها عالماً خاصاً. الخبرة في هذا المجال تقوم بمهمة كبيرة قد تتوافر عليها الشاعرة في المستقبل. «الشق الفارغ من الخزانة، من الجهة اليمنى لسريري، من جانب الأريكة الزرقاء، من المساحة الشاغرة فوق الرف، من عدد كراسي طاولة الطعام، من بطاقات الدعوة، من صوت المجيب الآلي، الشق الذي لا يترهّل من جسدي يشعرني أنني امرأة وحيدة «قصيدة» شاغرة».

في هذا النص القصير الذي يدور في مكان محدود وصغير للغاية تعود الشاعرة إلى بيئتها الحقيقية، وتصف عالماً ضاجاً بالأشياء الميتة. الأشياء الحاضرة بقوة، لكن الإنسان غائب فيها، وليس له وجود.

> حضور قوي لمفردات الشعر الأوروبي والأميركي